من أجل تطوير الكتاب اليمني

(2-3)

هشام علي

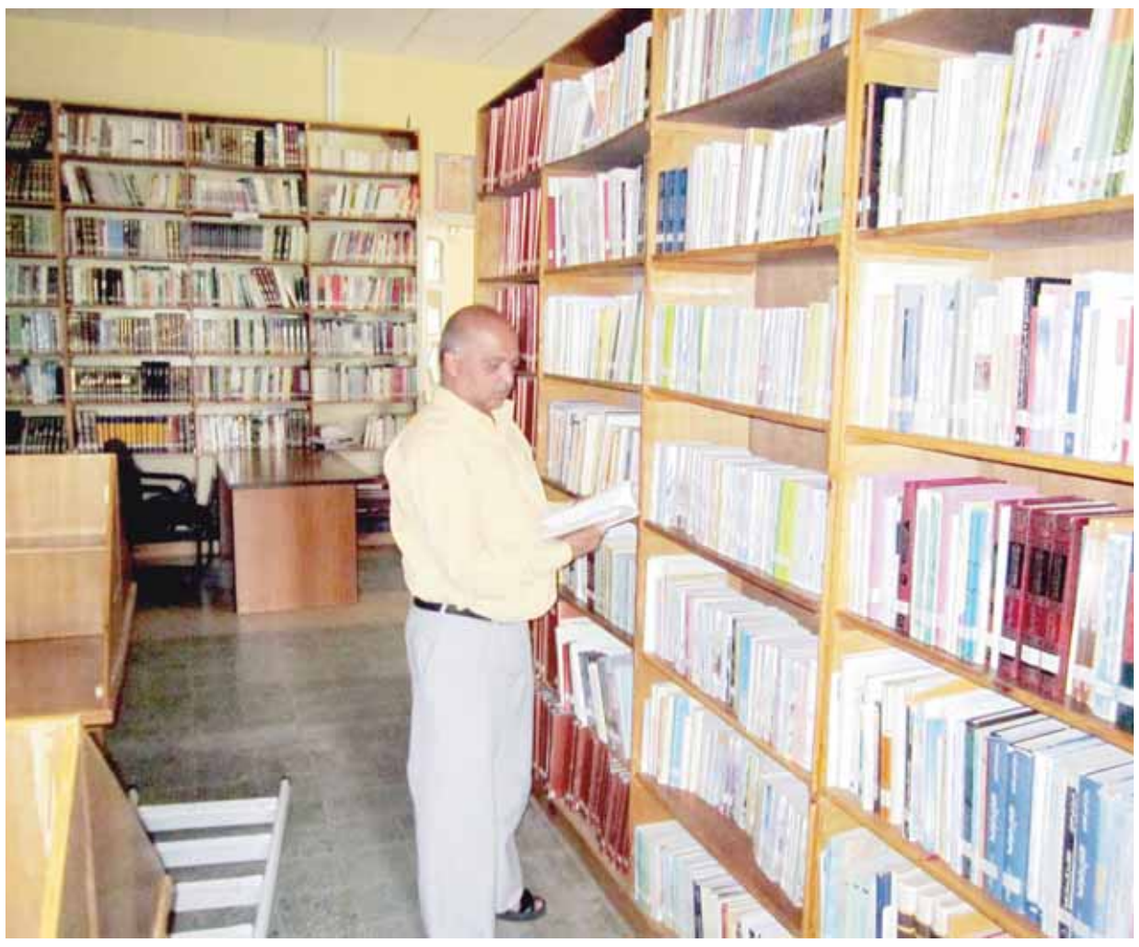

-2 طباعة الكتاب ونشره

كانت طباعة الكتاب في الخارج هي الاختيار الأول، منذ بوادر النهضة الفكرية في اليمن في مطلع القرن العشرين، على الرغم من دخول المطبعة العربية في القرن التاسع عشر، مع العثمانيين في صنعاء والانجليز في عدن, لكنهما لم تستخدما إلا لطباعة الأوراق الحكومية في البداية والصحف الرسمية.

وقد كانت الكتب المطبوعة محدودة العدد، كما أشرنا سابقاً ولم يكن انتشارها واسعاً. وفي مراحل لاحقة من الأربعينات ظهرت مطابع عربية اهتمت بإصدار الصحف على نحو خاص، ولم يكن الكتاب يدخل في اهتمامها، ربما بسبب القدرة المحدودة لتلك الطباعة من جهة، ومن جهة أخرى عدم الاهتمام بطباعة الكتب فقد كان كثير من الأدباء والمثقفين لا يميلون لجمع كتاباتهم أو أشعارهم، رغم نشرها في الصحف والمجلات، والذين تمكنوا من نشر كتبهم كانوا من مستوى اجتماعي معين، وفي حالات نادرة كان بعض التجار يقومون بنشر كتب أو دواوين شعرية لدعم الأدباء ظاهرة مهمة لكنها لم تتحول إلى تقليد، رغم أنها عكست اهتمام التجار بدعم طباعة الكتاب وانتشاره.

ظلت طباعة الكتب متعثرة ومحدودة، وفي السبعينيات بدأت طباعة الكتاب اليمني تشهد انتظاماً نسبياً، لكن الطباعة في معظمها كانت تتم في الخارج.

وقد قامت وزارة الإعلام والثقافة في صنعاء بتبني مشروع الألف كتاب في أواخر السبعينات، ونفذت طباعة نحو ست مائة كتاب خلال عدة سنوات امتدت حتى الثمانيات من القرن الماضي وكانت الطباعة في معظمها تتم في سوريا ولبنان.

وفي عدن كان مشروع الكتاب اليمني الذي ظهر في نفس الفترة، حيث تم طباعة نحو ثمانين كتابا في بيروت، بالإضافة إلى نشر عدد من الكتب السياسية والإيديولوجية، قامت الدائرة الإيديولوجية بالحزب الاشتراكي بطباعتها في بيروت يمكن أن نقول أن التجربة الأكثر أهمية في طباعة الكتاب اليمني قامت بتنفيذها دار الهمداني للطباعة والنشر، في مطلع الثمانينات حيث تم طباعة أكثر من ست مائة كتاب في مطابع الدار في عدن وقد أرست هذه التجربة تقليدا مهما في طباعة الكتاب وتطويره فنيا وموضوعيا، رغم أن هذه التجربة لم تستمر طويلا.

إذ توقفت الدار عن الطباعة، بعد استشهاد مديرها العام الأستاذ/ أحمد سالم الحنكي في أحداث 13 يناير 1986م.

وتمثل تجربة دار الهمداني مثالاً فريداً ومتميزاً على القيادة الثقافية ودورها في تحقيق المشروع الثقافي ودعمه ويستحق الأستاذ/ احمد سالم الحنكي أن نحيي ذكراه كقائد رائد في هذا المجال وشهدت التسعينات ظهور كثير من المطابع ودور النشر، لاسيما بعد صدور قانون الصحافة والمطبوعات، الذي أوضح الأسس القانونية لإنشاء المطابع ودور النشر، وفتح مناخا جديدا لحرية التعبير والفكر، في السنوات الأولى من عمر الجمهورية اليمنية.

انتشرت طباعة الكتب في داخل اليمن، بالإضافة إلى استمرار الطباعة في الخارج. وكان النصيب الأكبر من الطباعة يتمثل في الكتب الدراسية والجامعية، بالإضافة إلى الكتب الدينية والتراثية وفي 2004م أثناء الاحتفاء بصنعاء عاصمة الثقافة العربية، قامت وزارة الثقافة بطباعة نحو ثمان مائة كتاب لباحثين وأدباء وشعراء يمنيين وقد كانت هذه العملية الكبيرة في طباعة الكتب مساهمة نثرية في نشر الكتاب اليمني، انعكست أثارها الايجابية في الحياة الثقافية، الا أن أهميتها لم تكتمل، لأنها لم تسهم في تطوير عملية الطباعة في اليمن أو في إيجاد مطبعة خاصة بوزارة الثقافة، يبقى عملها بعد انقضاء الاحتفالية الخاصة بالعاصمة الثقافية.

وفي العام نفسه، وضمن الاحتفاء بالعاصمة الثقافية، قام اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بتنفيذ مساهمة كبيرة ومتميزة في طباعة الكتاب حيث نشر في ذلك العام أكثر من مائتي كتاب لأدباء يمنيين، وكان ما يميز هذه الإصدارات إنها طبعت في اليمن، في مركز عبادي للدراسات والنشر، وكان الأستاذ/ محمد حسين هيثم، رحمه الله ، هو قائد هذه التجربة الرائدة في أثناء قيادته للاتحاد. وهذا الشاعر المثقف يستحق الوقوف إحياء لذكراه وريادته في هذا المشروع الثقافي الذي لم يتكرر.

وفي العام 2010م كان الاحتفال بمدينة تريم عاصمة للثقافة الإسلامية، وتمت طباعة نحو مائة كتاب بهذه المناسبة، معظمها تحت طباعتها في بيروت، في تكرار لتجربة صنعاء عاصمة الثقافة العربية وبعدد أقل من الكتب.

وفي هذه المرحلة ظهرت العديد من المطابع داخل اليمن. خلط بعضها بين الطباعة التجارية وطباعة الكتب، كما أنشغل بعضها بطباعة الكتب المزورة، وهي نسبة قليلة، لكنها حملت سمعة سيئة لإعمال الطباعة في اليمن ويمكن تصنيف الكتب المطبوعة في اليمن، سواء في الداخل أو الخارج على النحو التالي:

-1 الكتب الدينية وتحتل النسبة الغالبة.

-2 الكتب الدراسية الجامعية ومناهج الثانوية العامة.

-3 الكتب التراثية والتاريخية.

-4 الكتب الأدبية وخاصة الدواوين الشعرية والمجموعة القصصية وفي السنوات الأخيرة الأعمال الروائية.

-5 الكتب السياسية.

ونلاحظ غياب الكتب العلمية والكتب المترجمة وكتب الأطفال وإذا وجد بعضها فيكون في حالات نادرة.

ويمكن الإشارة إلى تجربة جامعة عدن التي أنشأت مطبعة خاصة بها وقامت بطباعة عدد قليل من الكتب، بينها بعض الكتب المترجمة لكن عملها غير منتظم وغير متواصل.

القضية الأخرى المرتبطة بطباعة الكتاب اليمني هي النشر، الذي يكاد يكون غائباً، ويمثل عقبة أمام انتشار الكتاب في داخل اليمن ولا أقول في خارجه.

إن معظم المطابع تقوم بطباعة الكتب وخزنها في مخازنها، أو أنها تعرضها في مكتباتها الخاصة أن وجدت، وأغلب هذه المكتبات تقع في نفس المدينة هكذا لا يغادر الكتاب المدينة التي طبع فيها، وأحياناً الحي أو المنطقة، لان معظم المكتبات هي نوافذ عرض للمطبعة نفسها يستوي من هذا الأمر الكتب التي تطبعها وزارة الثقافة وهيئة الكتاب والكتب التي تطبعها المكتبات التجارية الخاصة أن تسويق الكتاب وانتشاره يمثل مشكلة خطيرة وعائقاً أساسياً أمام طباعة الكتاب والنهوض به.

فليس ثمة مؤسسة متخصصة بالتوزيع والنشر، وليس هناك خطط وبرامج لتوزيع الكتاب اليمني، بل أن المكتبات الخاصة بيع الكتاب لا تقبل عرض الكتب اليمنية وبيعها، وإذا قبلت فإنها تأخذ نسبة كبيرة من قيمة البيع.

ولعلنا نتذكر تجربة الشاعر عبد الله البرد وني، الشاعر المتمرد ليس في مجال السياسة وحسب، ولكن في كل الميادين المماثلة للسلطة السياسية، مثل الاحتكار والتجارة.

فقد رفض هذا الأسلوب من تسويق الكتاب، الذي يستفيد منه أصحاب المكتبات والناشرون، ولا يعود بفائدة على المؤلف، فقام بطباعة معظم كتبة على نفقته واتخذ طريقة مباشرة لتوزيعها عند إشارات المرور وفي الأماكن العامة، وبأسعار زهيدة ميسرة، وهي تجربة حققت توزيعا هائلا لكتبة وفي نفس الوقت لم يكن يجني منها أية عوائد مالية تعيد له ما انفق من مال في طباعتها.

وتكشف لنا تجربة البردوني في نشر كتبة، مأساة المثقف في بلادنا، المثقف الذي رفض أن يكون واحداً من وعاظ السلاطين والمسبحين بحمدهم، ووضع سلطة الثقافة في موازاة سلطة السياسة، بل جعلها تسبقها، لان كلمة الشاعر كانت أقوى من بيانات الحكام وخطبهم.

ولهذا عاش البردوني ومات عملاقاً مكتفياً باليسير من العيش، والكثير من حب الناس له ولأدبه.

أنفق كل ماله الذي اكتسبه من الجوائز التي حصل عليها، لينشر كتبه على قارعة الطريق، وما أن مات حتى اختفت كتبه من المكتبات.

ومن المؤلم أن هذا الشاعر الذي ملأ الدنيا بحضوره الإبداعي لم متمكن من تسويق كتبة في البلدان العربية، لأنه لم يرتبط بمؤسسة نشر تقوم بهذا العمل، والذي قام به منفردا في داخل اليمن يصحبه سائقه الخاص الذي كان يساعده في التوزيع، وظل وفياً لأستاذة بعد رحيله.

وقد قامت هيئة الكتاب بنشر الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر عبد الله البردوني، وأعادت نشرها ثانية وزارة الثقافة، لكن مشكلة النشر والتوزيع ظلت قائمة، وبقيت مئات من النسخ محفوظة في مخازن الوزارة، لا تجد سبيلاً إلى القارئ المتشوق لشعر البرد وني.

بالإضافة إلى أن جمع الأعمال في مجلدين ضمين حرم كثيراً من القراء من اقتنائها، وما أحوجنا إلى طبعة شعبية لدواوين البرد وني منفردة، والعمل على توزيعها بطريقة شعبية واسعة تستعيد تجربته الخاصة في النشر وتحقق تواصلاً فعلياً مع شعره.

وهناك ضرورة لإعادة طبع كتبه النثرية التي تشكل إضافة مهمة إلى تاريخ المجتمع والثقافة والسياسة، وفيها الكثير من الآراء الجريئة التي عجز عنه الكثيرون.

كما أن استكمال طبع الديوانين اللذين لم ينشرا حتى الآن ونشر سيرته الذاتية وغيرها من أعمال غير المنشورة لا تزال مهما راهنة في مشروع الكتاب اليمني.

والجانب المقصود في هذا المثال الذي أخذناه من الشاعر البردوني هو إثارة ملاحظتين، الأولى أن نشر الكتاب لا يزال مشروعا فرديا يقوم به المؤلف، وهذا ما نجده في حالات كثير من المؤلفين الذين يقومون بالطبع على نفقتهم الخاصة، ثم يذهبون لبيع كتبهم في الوزارات والمؤسسات حتى يستردوا ما أنفقوه. ولنا أن نتصور حال المؤلف البائع لكتبه، كم هي بائسة ومؤلمة!

الملاحظة الثانية تتعلق بالحقوق الغائبة للمؤلف. فإذا كان الكتاب أصبح سلعة يروج لها المؤلف من مكان إلى آخر، فهل يمكن أن نتخيل أي حديث عن حقوق مادية للمؤلف!

حالات 3

عبدالله كمال

الفتَى الذي سقطَ للتوّ على الأرضِ،
تلقفَتْهُ يدُهَا الملطخةُ بالآلامْ.
وكذلكَ الدمعُ الذي سقطَ من عيونِ الغيم
تَلَقَفَتْهُ الأرضُ
بنهمِ تاجرٍ جشعْ!
*****
المحاربونَ العائدونَ من الجبهةَ
يحملونَ الكثيرَ من الحكاياتَ ,
وكلُّ واحدٍ منهم
يراهنُ في نفسهِ,
على أنْ حكايته
ستكونُ الأكثرَ إثارةً للجدلْ .
*****
الرياحُ التي تَنْتَابُهَا نَوبَاتُ الصّرعِ,
في أوقاتٍ غير محددةٍ ,
لا زالتْ تُرْسِلُ زَحْفَهَا,
بِاتِّجَاهِ الشّمْعَدانِ الوحيدِ في المدينةْ .
*****
أيها الشاعرُ المَفْجُوعُ بِحَبِيْبَتِهِ..
انهضْ واستجمعْ حُرُوْفَكَ الشّارِدَةَ,
وتَحَلّلْ من القصيدةِ التي دَسّتْ الأرَقَ في فِرَاشِكَ ,
لا تَقِفْ أمامَ صُورتِهَا التي تُصَعّرُ خَدّهَا لِنَظَرَاتِكَ المتوسلةْ ,
لا تَقِفْ كَطِفْلٍ
يَبْكِيْ أُرْجُوحَتَهُ التي فَقَدَت القُدْرةَ على الحَرَكَةْ.
وأنتَ..
لم تعد منازلة طواحين الريح لائقة بمثلك,
في زمن الروبوتات المقاتلة وأسلحة التحكم عن بعد.

اقاصيص

نبيهة محضور

وفاء نادر

قدمت إليه علبة مجوهراتها.. عندما اخبرها بأنه يمر بضائقة ماليه.. قبل أن يسافر, وبعد عدة أيام رأت أسورتها الثمينة تزين معصم أحدى صديقاتها المقربات .

عهود ألأحبه

تعاهدا على الوفاء لبعضهما.. ووعدها أن يقاسمها الحياة بأفراحها وأحزانها .. حتى انه أرسل لها دعوة زفافه لتشاركه فرحته .

سجن

تلألأت بثوبها الأبيض .. ليقبع ربيع عمرها في سجن خريفه .

ليلة زفاف

ترك زوجته وأبناءه بعدما هام بذات العيون الزرقاء والطرف الكحيل ! و في صباح ليلة زفافه ..استيقظ ليجد أمامه زوج من العدسات الزرقاء ألّلاصقة.. وزوج من الرموش الاصطناعية.

وجود!!

كان هو الوجود الذي خلقته ..

وكانت هي الوجود الذي ألغاه .

حُلم !!

حلمت به.. حتى تمنت أن يكون حلماً

طريق الحرير

لابد، عند الحديث عن "طريق الحرير"، من قرن ما نطرحه، في الوقت نفسه، مع قصص وحكايات: "تاريخ العالم". لكن ما هو المقصود تحديدا بـ"طريق الحرير"؟ وما هو موقعها في التاريخ العالمي؟ هذان السؤالان، وعدد غيرهما، تقدم فاليري هانسن، أستاذة التاريخ في جامعة يال الأميركية، إجاباتها عنهما في كتاب اختارت له عنوان: "طريق الحرير: تاريخ جديد".

التعريف الشائع لطريق الحرير، والصورة التي ترتبط بها بمخيلة البشر حتى اليوم، تتمثل في الدرجة الأولى، بقوافل من الجمال محمّلة بالحرير، كانت تجوب الصحاري والقفار والوديان، من الصين إلى روما. ومثل هذا التعريف فيه شيء من الصحة، لكنه يختزل كثيرا حقيقة أكبر من ذلك بكثير، بالنسبة لما تعنيه "طريق الحرير" في تاريخ العالم، كما تشرح مؤلفة الكتاب، التي سبق لها وقدّمت عدة أعمال عن الصين، وبالتحديد الصين القديمة.

المادة الأساسية في هذا الكتاب، تتمثل قبل كل شيء، بالكم الكبير من المعلومات الأرشيفية، من كتب وخرائط ووثائق ومذكرات ورسائل، تزخر فيها مكتبات العالم ومتاحفه، بحثت فيها مؤلفة الكتاب، كي تكتب "تاريخا جديدا" لطريق الحرير، يعتمد على التاريخ القديم بأحد جوانبه. والمصدر الجديد الذي تعتمد عليه المؤلفة، يتمثل في الاكتشافات الأثرية المهمة التي أدت إلى نوع من الثورة في فهم الطرق التجارية.

في مختلف أنحاء العالم. وعلى رأسها "طريق الحرير". وتشير المؤلفة إلى أن الملفات الرئيسية، الخاصة بهذه الطريق، ظلّت مخفية لقرون، وأحيانا بدافع حمايتها من قبل إجراءات بيروقراطية ربما تقوم على نوايا حسنة. وتشير المؤلفة هنا، إلى أن رمال صحاري "تكلاماكان" كشفت عن وثائق في غاية الأهمية، كان أهل المنطقة، قد قاموا بإعادة تصنيع بعضها، كي يضعوا فيها نعالا للأحذية أو أكفانا للموتى.

وتتوزع مواد الكتاب بين سبعة فصول، يبدأ أولها ببحث عن "مملكة كرورينا"، الواقعة على مفترق طرق آسيا الوسطى. وتنتهي بفصل كرّسته المؤلفة لما اسمته: "سبيل دخول البوذيين والمسلمين إلى الصين". وما بين الفصلين، عن "المعابر الصغيرة لطريق الحرير" وكذلك: "تورفان: في وسط الطريق بين الصين وايران"، "تجّار طريق الحرير، خاصة في سمرقند".

وتؤكد المؤلفة في هذا الإطار، أن الظروف القاسية ووعورة الطريق، أسهما في صيانة الكثير من كنوز العالم القديم. وتقدّم دلالات في غاية الأهمية، على الثقافات التي كانت سائدة في المناطق المعنية.

و"التاريخ الجديد" لطريق الحرير الذي تقترحه فاليري هانسن، هو في أحد جوانبه المهمة، تاريخ للثقافات التي "مرّت بها" طريق الحرير، وأعطتها طابعا تجاريا واضحا، كما تقول، الآثار والوثائق القديمة التي من بينها بعض فواتير البيع والشراء.

وفي كل الحالات، تؤكد المؤلفة أنه كانت تقوم التجارة على طريق الحرير، بصورة أساسية، على السلع المنتجة محليا، حيث كان الحرير يشكل عملة التبادل المشتركة الأساسية، في مختلف العمليات التجارية.

وتلفت أبحاث الكتاب، إلى أن طريق الحرير لم تكن متواصلة ما بين روما والصين، بمعنى أنه لم تكن هناك طريق واحدة تمتد بين العالمين. ولكن كانت هناك "سلسلة من الأسواق" ما بين الغرب والشرق، وأنه كانت هناك علاقات ومبادلات تجارية، نادرا، ما بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الصينية. كما تتحدث المؤلفة عن سلع أخرى عرفتها طريق الحرير، لكنها لم تكن أقل أهمية في أسواق المبادلات التجارية، حينذاك، من الحرير.

وإذا كانت طريق الحرير قد أسهمت في تغيير تاريخ العالم، فإن ذلك يعود بدرجة كبيرة، إلى أن أولئك الذين نجحوا في الانتقال على طولها أو على أجزاء منها، حملوا معهم ثقافتهم التي وجدت جذورا لها في الأراضي الجديدة.

المؤلفة في سطور

فاليري هانسن. أستاذة التاريخ في جامعة يال الأميركية. قدّمت العديد من المؤلفات، من بينها: الإمبراطورية المفتوحة.. تاريخ الصين، الحياة اليومية في الصين التقليدية.

الكتاب: طريق الحرير.. تاريخ جديد - المؤلف: فاليري هانسن - الناشر: جامعة اكسفورد ـ 2012 - الصفحات: 320 صفحة - القطع: المتوسط

إصدارات